

٩ . اسرائيل سرطان ...

عقدت مصر الهدنة مع اسرائيل في الرابع والعشرين من شباط . وبعد ذلك التاريخ جعلت التطورات السياسية والعسكرية في الشرق الاوسط مركز العرب حرجاً الى حد بعيد . لقد واجهوا في رودس مندوبي اسرائيل المتصلين المتعنتين ، ولم يعمل رالف بانث الوسيط الدولي شيئاً يكون من نتيجته تحسين الوضع تحسناً حقيقياً . ذلك بان الاسرائيليين وقد استشعروا ان البيت الأبيض من وراءهم ، ما كانوا مستعدين للتساهل في شيء على الاطلاق . وفي غمرة من العجز ، وبسبب من فقدان حكومة قوية في كلا البلدين ، اضطرّ شرقي الاردن واضطرت سورية ، آخر الامر ، الى قبول الهدنة .

وفي عمان ، كان مركز الملك عبد الله بائساً حقاً . كان افراد رعيته يتجادلون في موقفه من الحرب ، وكان تدفق مئات الالوف من اللاجئين الفلسطينيين (الذين كانوا ناقلين على سياسته اشد النقرة بسبب من انسحاب القوات الاردنية انسحاباً مخفوفاً بالاسرار في نوار ١٩٤٨) على مملكته قد

زاد في متاعب العرش . ففي نوار ١٩٤٩ كان في البلاد الاردنية عدد من اللاجئين الفلسطينيين يعدل عدد سكانها الاصليين . لقد كان سكان الاردن ٤٠٠،٠٠٠ نسمة في كانون الثاني من عام ١٩٤٨ ، فامسوا بعد عام واحد ٨٠٠،٠٠٠ نسمة وزيادة .

ومن الناحية العسكرية كان مركز الاردن سيئاً جداً . فلم يكن لدى الجيش ذخيرة حربية ، ولم يكن البريطانيون يمدونه بالعتاد الا مداً شحيحاً . ولم يكن لدى المملكة الاردنية سلاح جوي عسكري . ولم يكن عندها من سلاح الدبابات والمصفحات غير تلك السيارات المصفحة التي اُبلت بلاءً باهراً في انقاذ القدس القديمة . وعلى الرغم من تعزيز الجيش بعدد وافر من المجندين الجدد ، فقد كان الفقر الى الاعتدة يُفقد هذا الكسب أهميته ويُخرجه عن الحساب .

وكانت الحال في دمشق لا تقل سوءاً عنها في عمان . وكانت زعامة الرئيس شكري القوتلي غير الحاسمة قد قوّضت دعائها بسبب من الحرب الفلسطينية . وتفصيل الامر أن الجيش السوري ، المتحرر حديثاً من سلطات الفرنسيين ، لم يكن مزوداً بأكثر من مقادير ومزية من أعتدة عتيقة ممانة ، وكان يشكو نقصاً كبيراً في عدد الضباط ومن دونهم من الجنود . فبينما كان الجيش الاسرائيلي غنياً بالقوات المتروسة التي خاضت غمرات الحرب الحديثة ،

معزّزاً بثبات من العساكر الاجنبية المرتزقة ، مزوّداً بأوفر السلاح وأشدّه فتكاً بعد الهدنة الاولى كان جيش سورية غير المنظم ، وجيش الاردن البوليسي يعانيان نقصاً في العدد والقيمة . والحق ، أنه لم يكن ثمة ما يمكن ان يعمل . كانت الروح وثابة ، ولكن لم يكن وراءها شيء مادي يدعمها .

وهكذا وقع لبنان الهدنة مع اسرائيل في ٢٣ آذار ، وتبعته المملكة الاردنية في ٣ نيسان . وكانت سورية آخر من وقع ، 'منهية' النشاط الحربي الفعلي في العشرين من تموز ١٩٤٩ . وهكذا اختتمت الحرب الفلسطينية جزءاً بعد جزء ، وجبهة بعد جبهة .

وفي تلك الاثناء كانت دمشق تشهد أحداثاً ذات شأن . فبعد توقيع الهدنة اللبنانية الاسرائيلية حدثت في سورية احدى ثوراتها المعجزة التي لا يكاد يصاب فيها أحدٌ بسوء . ففي الصباح الباكر من يوم ٢٩ آذار ، تقدمت مجموعات من السيارات المصفحة والدبابات الصغيرة تقدماً هادئاً الى المراكز المعينة لها في مختلف أرجاء دمشق ، وهناك انتظرت أوامر جديدة من الزعيم (الكولونيل) حسني الزعيم قائد الجيش السوري في الجبهة الفلسطينية . وكان الزعيم حسني هذا ، وهو كرديّ قصير بدين من حلب ، يبتغي الاستيلاء على مقاليد الحكم . وكان الى جانبه نفر قليل من كبار الضباط السوريين 'عرفوا بكل بساطة

بـ « الزعماء » (جمع زعيم أي كولونيل) .

ومن غير ما لجوء الى العنف اقتيد الرئيس القوتلي ومختلف أعضاء حكومته من 'فرشهم الدافئة وألقي بهم في السجن . أما الرئيس فقد احتُجز بسبب من سنه العالية وصحته المعتلة ، في أحد المستشفيات . وعند الساعة السادسة كان الزعيم حسني الزعيم يرأس الحكومة السورية ، وحل البرلمان السوري ، وأعلنت الأحكام العرفية وأذاع رئيس الدولة الجديد ثلاثة بيانات في الناس حذرهم فيها من الأتيان بأيما عمل ضد الانقلاب وطمأنهم الى سلامتهم اذا ما أدخلوا الشوارع عندما يحين موعد منع التجول .

ولم يصب أحدٌ بأذى ، في ما يبدو ، على الرغم من ان أحد الاوروبيين ، وكان ينزل في فندق « اوريان بالاس » المواجه لمحطة السكة الحديدية والمجاور لعدد من دور الحكومة السورية ، أخبرني انه أفاق ذلك الصباح كالعادة ، وآنعم بفطوره ، شأنه كل يوم ، ثم ارتدى ملابسه واندفع في نشاط بالغ الى الشارع ...

وتابع محدثي كلامه فقال انه ما كاد يخرج من الفندق حتى لقي أمامه مباشرة دبابه موصدة البرج . وكان ينبثق من برج الدبابه مدفع ، بدا وكأنما كان يحملق في فمه المفتوح . وفي الحال انقلب راجعاً الى الفندق ، ففقد المدفع اهتمامه البالغ به ، وراح يحدق الطرف في مكاتب آخر . وباستثناء بضع صدمات عصبيّة مشابهة لم يسقط

ضحية الانقلاب أحد قطّ ، في تلك الآونة ، على الأقلّ .
وبعد أيام قليلة سادت بمقابلة الزعيم حسني الزعيم . وكانت
الحدود السورية اللبنانية والحدود السورية الاردنية قد أغلقت
بسبب من شعور الزعيم بان موقف الحكومتين الاردنية
واللبنانية من اسرائيل كان ضعيفاً باكثر مما ينبغي . وهكذا
كان القاصدون الى دمشق عبر جبال لبنان الفاتنة يجدون
انفسهم مضطرين الى التوقف عند الحدود السورية في سهل
البقاع الذي لا يقل فتنةً وجمالاً عن الجبال اللبنانية . اما
القاصدون الى دمشق من شرقي الاردن - شامي انا - فكانوا
يُصدون عن سبيلهم في درعا حيث لم تكن فتنة او سحر
كالذين يتعزى بها المسافر من طريق بيروت . وايا ما كان ،
فقد كان الدخول الى سورية يقتضي ان تكون لك صفة
ديبلوماسية رفيعة . ولكن وطأة هذه القيود ما لبثت ان
خفت ، لحسن الطالع .

وكان برنامج الزعيم جيداً في ما يبدو . كان يعتزم ان
يقدم الى سورية دستوراً جديداً يحقق كثيراً من وجوه
الاصلاح ، وفيها منح المرأة السورية حق التصويت في
الانتخابات النيابية . واسهب الزعيم في الكلام حول هذا
الموضوع ، فقال لي بالفرنسية وفي ابتهاج عارم :
« ان نساء سورية سوف يرتدين الملابس الاوروبية .

انهن سوف يرقصن في الشوارع ! »
ولكن كان ثمة شيء في سياسة حسني الزعيم لم يحظَ

برضا الشعب ، وهو ربطُ سورية بتحالف وثيقٍ العرى مع
فرنسة . وليس من ريب في ان الذي حدا بحسني الزعيم الى
اتخاذ هذا الموقف هو رغبته ، في المحل الاول ، في تعزيز
الجيش السوري لتمكينه من الصمود في وجه اسرائيل ، على
الرغم من انه قد تكون ثمة حوافز اخرى . وأياً ما
كان ، فقد تراءى للشعب السوري ان الزعيم كان يسعى
لإعادة السيطرة الفرنسية الى البلاد ، ولم تكن قد انقضت
غير فترة يسيرة على تحريرها من نيرها . بيد ان ذلك
كان مجرد وهم . والواقع ان تشوش السياسة في الشرق
الاولى ظاهرة لا أعظم ان افيض في الكلام حولها ،
ولست بقادرٍ على ذلك . ولكن حين أوصد حسني ميناء
اللاذقية في اواخر شهر نوار وبدأ فيض فجائي من العناد
العسكري الفرنسي يظهر في ميادين حلب وحمص وحماه
ساورت الناس شكوك جديده ، ولعل هذه الشكوك ان
تكون هي السبب في مصرع الزعيم في منتصف شهر آب
من السنة نفسها . وكان الرجل الذي حكم عليه بالموت قد
اشتراك معه في خلع شكري القوتلي ، أعني الزعيم سامي
الحناوي .

تلك صورة عن الوضع الداخلي في البلاد العربية . وفيما
لم يجابه الملك عبد الله بأبما ثورة علنية فليس يدري أحد
الى أي مدى كانت سلامته رهناً بالتفاف الجيش الاردني
حوله . وليس من ريب في ان عاصمته عمان كانت تغص

بمخيمات اللاجئين ، وان مخيمات أخرى كانت تنتصب قرب قصره الشتوي في الشونة ، وفي اريحا بحيث لا يكون في ميسوره ان يتجاهلها حتى ولو رغب في ذلك ..

والواقع ان الملك عبد الله بذل كل ما في وسعه من جهد لرفع معنوية اللاجئين البائسين الذين أضحوا ، فجاعة ، من غير مأوى ، ومن غير ممتلكات أو مال . فكانت قطعان من الغنم تساق ، على نحوٍ مطّرد ، الى مخيمات اللاجئين ، تعزيزاً لأعمال الاغاثة التي كانت تنهض بها جمعية الاصدقاء (الفرندز) الأميركية والصليب الاحمر الدولي .

ولكن برغم هذه الجهود الجبارة كان ما بذل من نشاط في إغاثة اللاجئين دون الكفاية بكثير ، فأذا بكلٍّ من المعسكرات يشهد اسبوعياً مصرع عددٍ من اولئك البائسين بسبب من المجاعة والعري . وكان شتاء سنة ١٩٤٩ وبيعها من أسوأ ما شهدته تلك المنطقة في تاريخها الحديث ، وكانت الصحراء منقطعة بأجساد الحملان وصغار الجمال التي صرعا الصقيع .

وكان الدكتور بانس قد رجع ، في تلك الاثناء ، الى الوطن ، تاركاً الميدان للجنة الهدنة المختلطة في دمشق .

وكان يرئس هذه اللجنة الجنرال وليم رايلي ، الذي اتخذ من الدور الثالث في فندق « اوريان بالاس » مقراً عاماً له ، وأشرف على نشاط المراقبين الدوليين ، على اختلاف فرقهم ، من هناك . وكان قد اتضح في الحال ، تقريباً ، أن اسرائيل لا تعترم احترام اتفاقيات الهدنة المتعددة اذا ما رأت ان

من مصلحتها خرقها او تجاهلها . وهكذا غزيت القوى
العربية ودموت على نحو موصول ، وطرود سكانها الى
مناطق اخرى ، وضمت الى الاراضي الاسوائية بمختلف
الحجج والذرائع . وهذه الاعتداءات هي من الكثرة بحيث
يكون من العبث تقديم لائحة بها في هذا المجال ، وهي
مدونة كلها في سجلات هيئة الامم المتحدة . وكان كل
احتجاج تقدمه الدول العربية على هذه الاعمال العدوانية
لا يثير عند حكام تل ابيب غير الاستهتار وتحريف
الوقائع ، ولا يخلق في ليك سكس غير قصة ملفقة في
عناية بالغة . ولكن اسرائيل ما كان في استطاعتها ان
تخدع الناس القريبين من مسرح الحوادث . ومن هنا
جعلت تلك الاعتداءات من المراقبين الدوليين جماعة لم
يعرف هذا العصر اشد منهم نقمة على الصهيونيين
وعداوة لهم .

ولعل ابشع حوادث العدوان هذه ما ترتكبه « شركة
تجفيف بحيرة الحولة » على الرغم من أن غيرها لا يقل عنها
اذىً وضرراً . وتقوم بحيرة الحولة عند الطرف الشمالي الاقصى
من وادي عربة . في حين ان العقبة هي الطرف الجنوبي
الاقصى في اوراسيا * . وتقع الحولة حيث يبدأ الاردن .
وإنما يغادر الأردن (الذي حرّف الصليبيون اسمه الى
« جوردان » Jordan) بحيرة الحولة نهراً صغيراً ينساب في

* اروبة وآسية منظوراً اليهما كوحدة . [المغرب]

هدوء مسافة غير طويلة ليندفع بعد ذلك فجأة الى المضائق
والشلالات التي تنخفض وشيكاً بالنهر المتضخم حتى تنتهي به
الى بحيرة طبريا . وبعد أن يفارق هذه البحيرة يتخذ سبيله
المتعرجة الى ان يخفي عن العيان في البحر الميت . اما
المضيق الناشئ عن تقلص قشرة الارض وعن الزلازل وغيرها
فيستمر في اتجاه الجنوب حتى العقبة .

وتطراً على صفة نهر الاردن خلال سيره تغيرات جذرية ،
فهو يبدأ عذياً بمياه الينابيع والجداول المحتشدة من سفوح
جبل خرمون ثم يجمع مقادير من المعادن القلوية خلال انحداره
من ارتفاع يبلغ نحواً من مئتي قدم فوق سطح البحر ، حتى
ينتهي الى تحولته النهائي حين يصب في البحر الميت المنخفض
نحواً من ١٣٠٠ قدم تحت سطح البحر . ونسبة المواد
القلوية * في نهر الاردن هي التي تقرر ما اذا كان في ميسور
الغلال ان تنمو على ضفافه ، التي هي عربية طبعاً ، أم لا .
وبحيرة الحولة سورية في معظمها ، ولكنها مجاورة لاسرائيل
جزئياً ، ولقد قام الصهاينة باعتداءات متعاضمة في تلك
المنطقة برغم أنف الهدنة . ولو قد استطاعت اسرائيل ان
تجفف او تحول مجرى الينابيع العذبة المجمعة في بحيرة
الحولة - البالغة مساحتها ستة أميال مربعة - اذن
لاستطاعوا ان يزيدوا في نسبة المواد القلوية في الاردن
الادنى ، وبذلك تغدو الاراضي التي تتميز اليوم بالخصب

* من المعروف ان المواد القلوية تنزل بالزراعة أذى كبيراً . [المغرب]

أراضي مجدبة ، وتهجر المدن الزراعية القائمة اليوم على ضفاف
الأردن ، والأراضي المروية المجاورة لها .
وذلك ، في ما يفترض ، هو الهدف الذي يرمي إليه
الإسرائيليون . فما إن تهجر القرى حتى يهرع الصهاينة إلى
الأراضي القاحلة ، ويفتحوا سدودهم . وحين تستعيد المياه
عذوبتها ، ينبت الزرع من جديد وتكون إسرائيل قد
ضربت ضربةً غادرة جديدة . ولقد احتجت الحكومة
الأردنية احتجاجات متوالية لدى الأمم المتحدة ، على هذه
الأعمال العدوانية ، ولكن تلك الهيئة العاقرة لم تحرك
سائناً ، ولم تعمل عملاً .

والواقع أن « شركة تجفيف بحيرة الحولة » باشرت
أعمالها منذ فترة من الزمان . وكانت الخطة تقصد ، في
الاصل ، إلى تجفيف البحيرة « مكافئةً للملاريا » . ولكن
هذه الذريعة نُسيت اليوم ، في ما يظهر ، فإسرائيل تزعم
أنها تقوم بمحاولة « استصلاح للأرض ابتغاء تعزيز إمكاناتها
الزراعية » وليس من ريب في أن إسرائيل في حاجة إلى الأراضي
الزراعية لكي تغذي مشاريعها الخاصة بالهجرة على نطاق
واسع ، ولكن ليس يمكن أن يكون ثمة مبرر شرعي
لارتكاب هذه الجريمة الجديدة ضد العرب لأن مساحة
الستة الأميال المربعة لن تفيد إسرائيل شيئاً إذا لم
تُضاف إليها الأراضي العربية القائمة على ضفتي الأردن أيضاً .
وثمة قول بأن شركة تجفيف بحيرة الحولة إنما جمعت أموالها
في نيويورك ، ولكن هذه الشركة هي على أية حال ،

شأن كل شركة من شركات استصلاح الارض في اسرائيل ،
ملك حكومة تل اييب .

وحكومتنا سورية والاردن قدركان اتم الادراك
مطامع اسرائيل التوسعية هذه ، وتتوقعان دائماً ان تقوم
بعدوان جديد على خطوط الهدنة من اقصى الشمال حتى
خليج العقبة حيث انشأت تل اييب « ميناء عميق المياه »
عند ماوى ذلك الصياد القديم الذي اشرنا اليه آنفاً ،
واطلقت عليه اسم « ايلات » الجاهز . وتحمل المياه الى
هناك على متون الطائرات ، لانه ليس ثمة ينابيع او طرق
بين بير السبع و « ايلات » . ولقد وفق نفر قليل من
الاسرائيليين المغامرين الى ان يبنوا آخر الامر بيوتاً لهم
حقيرة في ذلك المكان القصي ، فهم يأكلون من علب
الطعام المحفوظ التي تلقى اليهم بواسطة المظلات . اما في
موضوع « الميناء العميق المياه » فنحب ان ننص ههنا على
على ان الطرف الشمالي من خليج العقبة يضاهي زميله الفارسي
ضحولةً ، وان الجزء القابل للملاحة من ذلك الخليج انما يبدأ
في المنطقة العربية .

●
ان دولة اسرائيل سرطان أقجم ظلاماً وعدواناً ، وفي كثير
من العنف ، الى الشرق الاوسط . ولا يمكنها بخلاف السرطان
لا تستطيع ان تحيا الى ما لانهاية له على حساب جيرانها ،
ولا بد لها من ان تموت آخر الامر ما دامت لا تملك في

ذاتها مقومات الحياة . لقد قيل ان دافيد بن غوريون
تباهى يوماً بان « حدود اسرائيل تقع على ضفاف القرات » .
وسواء أكان بن غوريون قد قال ذلك حقاً ام لم يقله ،
فالذي لا ريب فيه ان مسلك اسرائيل كله يؤذن
بأنها تهدف الى هذه الغاية . وفي الوقت نفسه تحاول
اسرائيل ان تحشر ما يزيد على مليون تاجر من اهل
المدن في ثلاثة ارباع بلاد لا يستطيع كله ان يحمل
نصف ذلك العدد . وليس ثمة في اسرائيل أي تصدير
صناعي ، ولن يكون شيء من ذلك ممكناً ، ما دام
يتعين على اسرائيل - حتى لو استطاعت انشاء صناعات
قوية - ان تتنافس في هذا الميدان مع فرنسا وبريطانية
والهند واليابان . وإذا كانت صناعات اسرائيل تعاني منذ
الآن ارتفاعاً متضخماً في أجور العمل ، فالمستقبل يبدو
من هذه الناحية غير مشرق البتة .

لقد تردد في الصحف الاميركية ان في الثقب وغيرها
من الاراضي الداخلة في حدود اسرائيل إمكانيات نفطية
حسنة . ولكننا نحسب أنه لو كان ذلك صحيحاً اذن لكان
خليقاً به ان يثير اهتمام دوائر المسح الجيولوجي في حكومة
واحدة على الاقل وفي كثير من شركات البترول ، ويوقع
في قلوبها الغبطة والابتهاج . . .

وأخيراً يُشار الى موارد البحر الميت كثروة وطنية
تدعم مستقبل اسرائيل الاقتصادي . ولكن على الرغم

من وجود المغنيزيوم والبرومين وغيرهما من المعادن في البحر الميت فإن إسرائيل لا تستطيع التفرد في استغلال هذه الموارد وفقاً لأحكام القانون الدولي الذي يحرم على الدولة التي تحتل جزءاً من جسم مائي متعلق بملكه عدة دول أن تستقلّ بالقيام بأي تدبير من شأنه أن يؤثر في مستوى المياه أو في خصائصها الطبيعية . والحق أن أكثر من سبعين بالمئة من سواحل البحر الميت يقع ، وفقاً لاتفاقية الهدنة الاردنية الاسرائيلية ، في الاراضي الاردنية ، فهو ملكٌ خالصٌ لها .

وعلى الجملة فإن الوضع يبدو عجبياً الى حدٍّ متطرف . لقد ابتليت فلسطين فجأةً - وهي منذ القدم بلدٌ عربي - بذلك الشعب الاجنبي العدواني الغريب عنها غرابته عن مانهاتان نفسها . وهو شعب لا موارد له ، شعبٌ عالةٌ على الاموال الاجنبية التي تروده من وراء البحار .

إن إسرائيل لن تعمّر طويلاً . واذا ما سمح لها بذلك فعندئذ يكون بقاؤها على قيد الحياة اعجوبة شريرة !

انتهى